

جماعة العلم الصحيح وحماة الدين القويم يزيدنا من واسع علمه نصحاء ان غوى والى
دركات الضلال هوى والله الموفق الى قصد السبيل

الطاعون الدملي

مقالة للاب لويس بولوموا مدرس العلوم البكتريولوجية في مكتبنا الطبي

١ تاريخ الطاعون

ما من آفة نال أذاها البشر في كورد الاجيال ونشرت في العالم الموتان والاهوال
كداء الطاعون العزال الذي ابقى في حنينة الشعوب اثرًا مشؤومًا ترتجف القرائص
لذكر شره الجحاف وسهيه القتال

ولكن قد وهم البعض اذ نسبوا الى الطاعون الاسود او الدملي اوبئة اخرى
اسبب قداماء الموزخين في تعريف خواصها المرضية. وذلك انه شبه عليهم اسم الطاعون
الذي وجدوه في اوصاف اولئك المؤلفين قتلوا ان المراد هو الطاعون الاسود. والصواب
ان لفظة الطاعون في العربية كلغظة (Peste) عند الادريين ربما أطلقت على كل عدوى
تنتشر في بعض البلاد وتجحف بقم من سكانها وذلك امر اشار اليه جالينوس
الطيب الشهير. ولكن اذا حصرنا الكلام على الطاعون الاسود وجدنا ان ما يفرز به
هذا الداء عما سواه الغدد او التفاطات التي تظهر في جسم المصابين على جلدهم. فاذا
لم تبد هذه الخراجات فليس الداء بطاعون وانما هو وباء شبيه به من حيث مفاعله
الوخية. وعليه فأننا لا نعد كطاعون ثلاث آفات احتل بلازها في القرون الفسيرة
على بعض الاصقاع ودعاها الموزخون طاعونًا غير انهم نكثوا في تشخيصها عن ذكر
البثور الحاصة بالطاعون الاسود. وكان ظهور الوباء الاول في بلاد اليونان سنة ٤٣٠
قبل المسيح في خلال الحرب السيلبونيية ولم يلبث ان عم شرها البلاد المجاورة من
آسية الصغرى والجزائر البحرية. وقد تضاربت آراء المحدثين في بيان امر هذا الداء
الذي وصفه توقيديد المورخ اهو الحسى الصفراء او التيفوس او الجسدوي او غير ذلك
بما لا يحسننا الآن الخوض في البحث عنه. اما المدوى الثانية فانها اصابت الجيوش
الرومانية سنة ١٦٦ م على عهد مرقس اوديلوس وقت سيرها لمحاربة البرتين تحت قيادة

لوقبوس فارس. ونقلتها الجنود الى رومة فانتشرت من ثم في جميع انحاء ايطالية. وقد شاهد جالينوس هذا الداء وشخصه في تأليفه وهو اشبه بالداء السابق المذكور في تاريخ توقيديد. وظهر الرباء الثالث في مصر سنة ٢٥٥ م فتك بكائنها فتكاً ذريعاً ثم تعدى الى سواحل افريقية والى اليرقان وايطالية ولم ينته الا بعد عشر سنوات فالتف من الازواح ما لا يحصى الا الله. وادعائه مسطرة في تأليف القديس قبريانس الشهيد اسقف قرطاجنة وهي توافق ما ذكر عن الجائحتين السابقتين

على أننا لا ننكر معرفة القدماء بالطاعون الاسود ذي الشرى والندد السود. فان الكردينال ماي اكتشف كتاباً خطياً مسطراً على رق غزال كان رقم عليه كتابة سابقة يحسبها النسخ لخط تأليف جديد. فاستاد الكردينال بواد كيمارية الخط الاول فوجد فيه تأليفاً لاوريانز (التونسي في اوائل القرن الخامس بعد المسيح) ورد فيه ذكر الطاعون الدمبي كما وصفه الاطباء في ايامنا ببلاد الهند. وهذا تعريب قول اورينانز:

« ان الثغاطات الطاعونية كلها قتالة وتنهش بنوع غريب لاسيا في بلاد لية

ومصر وسورية »

فهذه الالفاظ الوجيزة لا يمكن اطلاقها الا على الطاعون الاسود اذ وصفه المؤلف بجواحه المرزة له عما سواه. والدليل على ذلك انه بعد توله السابق يحول القراء الى مطالعة مقالات ديونيسيوس الاحدب وديوسقوريدس وب يدونيوس وفيها اوصاف الطاعون الاسود الفاشي في السنة ٣٠٠ ق. م بنواحي لية. ومن تشخيصهم للمرض انه « يصيب الطعون حمى شديدة مع اوجاع واترعاج في كل البدن وهذيان ودوار وبروز نفاطات متسمة الدائرة فيها جوس دون ان يخرج منها صديد وهي تبرز في البدن كاه »

ومع هذه الاوصاف المدققة كانت الدلائل التاريخية لبيان فشر الطاعون الاسود قليلة جداً قبل السنة ٥١٢ ميلادية. ولما دخلت السنة المذكورة على عهد الملك يستيان ظهر هذا الداء في مدينة بلوزة من اعمال مصر السفلى وسرت العدوى الى سواحل بحر الازرق ثم انتهت الى تخوم فارس. وممن وصف الرباء الموزخ إفاغوريوس الشهيد قال: « لا السن ولا بنية الجسم ولا اصناف الاحترافات اجبت نفاً باراء هذه العدوى. فمن المصابين من كان يعتريهم على بفتة حتى خفية دون ان

يطرأ على هيئتهم تغيير كبير ودرجياً كانوا لا يزالون بهذه الظواهر فيحسبها الأطباء. كتب
عروزي ليس إلا. على أنه كان يعقب هذه اللوائح نفاطات ودماهل تحت الآباط...
وكان المرض اذا اشتدت وطأته على المصابين ألحق بهم سبباً ثقيلاً مما من ذآكرتهم كل
الامور او كحل عيونهم بالسهاد وبلبل افكارهم وكنت ترى بعضهم يضطربون كأنهم
جنوناً ويفرون هارين من اشباح تتخيل لهم بصور هائلة. وكان اغلب هؤلاء التكوين
يذهبون فريسة الداء... وكانت الدماهل في بعضهم محددة الرؤوس فاذا انفجرت
وخرجت منها الحراجات نجما اصحابها. ومن البشر صنف اسوأ من غيره عتبي كان يظهر
على الجسم بشكل بقع محمرة يبرز فوقها ذبول سود على كبر عدسة. فكان الذين
يصابون بهذه الدماهل يسقطون صرعى على الحضيض ويتقيأون دماً ويموتون فجأة»
تلك هي التفاصيل الواردة في كتب المؤرخين عن هذا الوباء وهي لا بحالة نفس

العلامات التي لحظها الأطباء في العدوى المنتشرة في ايامنا في الهند والصين

ومذ ذلك العهد تكررت هجمات الطاعون في بلاد شتى من آسية واوربة. وقيل ان
اول طاعون ظهر في الاسلام كان بعد فتح المدائن بعد الهجرة بقليل وعتبه في أيام عمر
ابن الخطاب سنة ١٨ (٦٤٠ م) طاعون عمواس وهي بلدة على ستة اميال من الرمة
على طريق القدس فثامتها الى ارض الشام. قال ياقوت الحموي وغيره أنه مات فيه
خمسة وعشرون الفا من المسلمين. وقد عدد الكنت فون كريمير خمسين طاعوناً (١) في
القرن الثلاثة الاولى للاسلام

ومن الطواعين التي وجفت لها القلوب هلماً طاعون القرن الرابع عشر المعروف
بالطاعون الاسود او الموت الاسود وكانت نشأته في الصين سنة ١٣٣٤ فلم يزل يمتد
تدريجاً من صقع الى آخر حتى تجاوز الهند وفارس وتجوم الروس فضرب اطناباً في بلاد
اللاه والمانية ثم فونسة وايطالية وانكلترة ونزوح ولم يتخلص ظله الا في سنة ١٣٥١
بعد ان اجتاح ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ من اهل اوربة اعني ربع سكانها وكان مجموع قطن
قارة اوربة آنئذ ١٠٥,٠٠٠,٠٠٠ ويؤخذ من رسالة البابا كليمنس السادس ان عدد
الوفيات في المصور بلغ اذ ذاك ٤٣,٠٠٠,٠٠٠ وهي لمصري جائحة تطن لها الآذان الى
يومنا هذا. وكان من سماتها ان ينتشر على جلد اصحاب هذا الداء شرى وغدد

(١) راجع A. V. Kremer : *Culturgeschichte des Orients* I, 490

ويتتروون الدم ويتفون مراد صيدية. الا ان هذه الاعراض ليست بادية في كل الاربثة لاختلاف اجناسها فان الوباء الصيني مثلاً يغلب فيه على الملعونين عراقييل الرنة والتبغات الحراء والدمامل

وعاد الطاعون بعد ذلك فاحتل مراداً في اوربة كضيف مشروم على ان وطأته كانت اخف من العدوى السابق ذكرها اللهم الا في السنوات ١٥٢٥ - ١٥٢٨ اذ فشا في كثير من مدن ايطالية. ثم كرجاً في القرن السابع عشر فألحق في انحاء اوربة اضراراً لا تحصى. الا انه بعد ذلك اشفق على شمالي اوربة وزحف بجنايه ورجليه على الجنوب فلم يبق ولم يذر. فن ذلك وباء سنة ١٧٢٠ نقله الى سواحل فرنة مركب تجاري أنجر من مدينة صيدا. ميناً مرسية وكان شحنة حريراً فبلي نوتيان بداء الطاعون وماتا دون ان يشمر الركاب بسبب موتها. فسرت المدوى من السفينة الى مدينة مرسية ثم الى جنوبي فرنة وقتلت اهلها ابرح قتل. وهر الوباء الذي اشتهر فيه ذلك الشهم القدام والبطل الهمام السيد دي بلزئس اسقف مرسية فانه ضحى نفسه عن شمه على مثال الراعي الصالح ولم يزل ليلاً مع نهار يتولى بنفسه شرون المصابين حتى انهض المسم وقوى العزائم واجتذب بمثله مئات من الكهنة والرهبان لتسريض الملعونين واسماهم بكل ما امكن من الوسائل ولم ينقطع عن اعماله المبرورة حتى نال بصلواته من الله ان يكف ذراع غضبه عن رعيته. قيل انه مات منها نحو اربعين الفا في مرسية وحدها. ولا يزال الى يومنا تمثال في اكبر ساحات المدينة اقامة له الاهلون كذكر محلد وشكر موبد

ولم يد الطاعون الى فرنة منذ ذلك الحين غير ان صقلية ابتليت به في سنة ١٧٤٣ اتاما من احدى السفن القادمة من بلاد اليونان الى متينة فاتلف باقل من ثلاثة اشهر ٤٣٠٠٠ نفس ثم خمدت بعد ذلك سورة المدوى في اوربة جمعا. اما البلاد الشرقية فان كثيراً منها تكن في صدرها جراثيم الطاعون لاسيا مصر التي تمد كاحدى مصادر الوباء. فان عدد الطواعين في مصر بلغ من سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٨٤٤ نيفاً وعشرين طاعوناً دام منها كثير مدة تربي على ستين. وفي ذقة نابوليون على مصر مات من جيشه فوق النجى جندي بالطاعون وتوارى الداء من مصر منذ سنة ١٨٤٤ بيد انه في هذه الاسابيع الاخيرة لم تلهج

الالسن سوى بذكر الاصابات الواقعة في الاسكندرية . ونسأل الله الأيبتلي عباده
بهذا الداء العظام

أما بلاد الشام وآسية الصغرى فان الطاعون وفد عليها مراراً في القرون الماضية
وقد دفع الله عنهما اذاه منذ سنة ١٨٣٩ . وكذا انقطع الوباء عن بلاد المغرب والجزائر
مع فشوه مرتين في طرابلس الغرب

ومن البلاد التي امتحنها الله قريباً بالطاعون بلاد المير في جنوبي جزيرة العرب
وقد عليها الوباء في السنين ١٨٥٣ , ١٨٧٤ , ١٨٧٩ , ١٨٨٩ . وكذا بعد العراق العربي
وشرقي ما بين النهرين كنواح موبوتة توات عليها فتكات الطاعون . وقد شن النار
مراراً على بغداد مدينة السلام

قال الميو تولوزان ان مركز الطاعون الاولي في القسم الاعلى من حوض الفرات
يدخل في حيزه بلاد المعجم كما اثبتت ذلك اللجنة العثمانية . والاقليم المصاب بهذه البلية
العظمية اكثر مما سواه اقليم اذربيجان بحرف الطاعون اهله في السنين ١٨٦٣ و ١٨٧٠
١٨٧٢ و ١٨٧٨ و ١٨٨٥ ثم يتلوه خراسان ثم كردستان

ومن اقاليم الصين الموبوءة عادة اقليم اليوتام ومركز الوباء في ياخوي احدي عواصمه .
ومنها صدر طاعون سنة ١٨٩٢ ودخل كانتون قتل من سكانها ١٨٠,٠٠٠ نفس
وسار من ثم الى شمالي غربي الهند فانتقلت لظهوره القلوب وهو لا يزال منذ ثلاث
سنين ينشر في بجاى لواء الموان

هذه نبذة موجزة تنبئنا بتاريخ الطاعون واعماله الغير المشكورة وهي تبشيراً بالويل
والشور اذا ما تناهينا عن سد باب اقطارنا في وجهه واذا لم نتخذ الوسائل الفعالة في
قطع دابره وهو العذر المشؤوم الذي يعمل في الامصار عمل السيف البتار فلا يرعوي
الأ بعد اخلاء الديار وتسمير القبور بنفوس الاحباب والذراري

وفي مقالة ثانية منستوفي الكلام ان شاء الله عن تعريف الطاعون وخواصه
وكيفية سريانه والوسائل التي تعرف حتى الان لدفع بلانه (ستأتي البقية)

شهيد العلم

بفلم محمد ابي عز الدين كاتب ضبط دائرة المحقوق الاستثنائية في جبل لبنان
عثرت في احدي المجللات الاجنبية على طريقة من سيرة القدام الطيب الأثر الدكتور